الفصل الأول

أغاني الرحى

تمهيد

من الأعمال اليومية التي كانت تقوم بها النسوة طحن الحبوب - (الشعير، القمح، الذرة، الدخن وغيرها) فقد يكون الطحن لتوفير الدقيق لاحتياج الأسرة وقد يكون للغير مقابل أجر، وعملية الطحن تتم بواسطة الرحى، تلك الأداة المهمة والتي عرفها الإنسان منذ أقدم الأزمنة، حيث كانت أقدم الطواحين وأكثرها بدائية تعود إلى العصر الحجري الحديث، حيث ارتبط ظهورها بإنتاج الطعام، وقد اختلفت من حيث الشكل والحجم، وكذلك من حيث مادة الصنع، فبعضها صنع من الصوان والبعض الآخر من حجر: الكوارتز الأسود، ويعتبر الأفارقة أول من اشتغل بالزراعة قبل 12000 سنة، حيث أورد البروفيسور: fred wendorf الذي اكتشف ان الناس في صحراء مصر الغربية قاموا بزرع القمح والشعير والحمص، والبقول والعدس والبلح، كما اكتشف أيضًا حجر الشحذ[2] والرحى: {الرحى حجر يستخدم في طاحونة لطحن الحبوب، ويعمل يدويا أو بقوة الدواب أو الرياح أو التيار المائي.. }، كما عرفت شعوب العالم الآت تقوم بما تقوم به الرحى مثل الكرو في البلدان الافريقية، والمسحان عند الهنود، والكاسرة عند الإغريق، ولقد عرفها العرب منذ القدم،

[2]- هو ما يعرف باسم " المسن"

فقد جاء ذكرها في (لسان العرب) الرحى: جمع أرح ورحي، والرحى الحجارة، والصخرة العظيمة، وأصل الرحى التي يطحن بها، وجاء في معجم (المصباح المنير) الرحى جمع أرح، وأرحاء، مثل سبب وأسباب، وربما جمعت على أرحية، ومنعه أبو حاتم وقال هو خطأ. وربما جمعت على رحي على فعول، وقال ابن الانباري، والاختيار ان تجمع الرحى على ارحاء، والقضا على أقضاء، والندى على أنداء لان جمع فعل على أفعلة شاذ. وقال الزجاج أيضًا: الرحى أنثى، وتصغيرها رحية، والجمع أرحاء، ولا يجوز أرحية لأن أفعلة جمع المدود لا المقصور، وليس في المقصور شيء يجمع على أفعلة. قال ابن السكيت: والتثنية رحيان ورحوان، ورحى الحرب: جوقتها، ودارت عليه رحى الموت إذا نزل به. انتهى ما جاء في معجم (المصباح المنير) للعلامة: أحمد بن محمد الفيومي الحموي المتوفى سنة 770 هجري رحمه الله.

تتكون الرحى من جزأين كل جزء عبارة عن حجر صلد غالبا ما يكون لونه رماديا، على شكل أسطوانة يختلف طوله وارتفاعه من رحى إلى أخرى وتسمى هذه الاسطوانة في المفهوم العامي (فردة) ويثبَّت في وسط الجزء السفلي مسمار غليظ، يبلغ طوله حوالى خمسة عشر سنتمترًا، ويسمَّى قلب الرحى، وقد يكون عودًا من الشجر القوي، أما بالنسبة للجزء العلوي (الفردة الفوقية) فقد

نحت في وسطه دائرة يبلغ قطرها حوالى سبع سنتمتر يحشر فيها عودان، أو تكون قطعة من الحديد وسطها دائرة يدخل منها قلب الرحى وتسمى "فراشه".

تضع المرأة الحبوب المراد طحنها في هذه الفجوة، كما يوجد في الجزء العلوى مقبض من الخشب القوى يسمى "الشظ" يبلغ طوله حوالى 20 سنتمتر، تقبض عليه المرأة بيدها وتدير الرحى بواسطته، كما يعملون بالرحى نتوءات وحجار تسمى "نقشه" تساعد على طحن الحبوب التي تتساقط دقيقاً على قطعة من الجلد تسمى الرقعة هذا بالنسبة للرحى المنقولة والتي غالباً ما تستعمل عند أهل البادية تقول مغنية "الرحى في وصف هذا النوع":

فراشها سلخ قعدان ... وشظاظها عود زان

وشرايها لا تهده ... ديما على العز باني

أما في مناطق الاستقرار كما هو الحال في الواحات فإن الجزء الأسفل من الرحى يتم تثبيته على قاعدة مبنية بالجير البلدي الذى يحرق بالنار ثم يعجن بالماء وتوضع فيه قطع الحجارة الصغيرة فيكون متماسكا وقوياً عند البناء، فهو يشبه الجبس وفى أسفل القاعدة هناك حوض على شكل دائري يتساقط فيه الدقيق.

الرحى أحجام، منها الكبيرة والمتوسطة والصغيرة. والأخيرة تستخدم في غرض معين وهو طحن العطور العربية مثل الورد، والقرنفل وغيرها والتي تستخدمها النساء لمشط الشعر أو لغرض صناعة البخور في المناسبات خاصة الزواج والختان، وتعرف الرحى الصغيرة باسم (رحاة الصنة) ولكنها لا تتوفر بشكل كبير كما هو الحال في الأحجام الأخرى لأن استعمالها محدود ويتم استعارتها من أسرة إلى أخرى عند المناسبات فقط.

تصنع الرحى في بلادنا من الحجارة الصلبة، ومن المناطق المشهورة بصناعتها منطقة (جناون) في الجبل الغربي (جبل نفوسة) وذلك لصلابة صخورها. وهناك أنواع من الرحى يسمى (رحى طورية) ويقال إن صخور هذا النوع توجد بجبل الطور في صحراء سيناء.

تترنم المرأة في أثناء طحن الحبوب بعبارات تعلن فيها عن تبرمها وضجرها من كثرة العمل والطحن، كما أنها تعبر عن واقعها تعبيرا فنيا أخاذاً يشمل الفرح والحزن والفراق والغربة والفخر والحماس والهجاء والرثاء والنصح والإرشاد والتوجيه والصبر والتحمل والدعاء وغير ذلك من أنواع التعبير الشفوي.

لقد كان وجود المرأة بارزا وقويا، من خلال المأثورات القولية، والتي من أهمها أغاني الرحى أحد أنواع أغاني العمل وأحد مكونات

الأغنية الشعبية، وقبل الولوج في الموضوع فإننا نبدأ أولا بتعريف موجز للأغنية الشعبية ووظائفها وخصائصها وأنواعها فنقول:

الأغنية الشعبية ركن من أركان التراث الشعبي وهى مجهولة النشأة في غالب الأحيان – لها لحن، تعتمد موسيقاها على السماع وليس لها (نوتة) موسيقية مكتوبة، ولها ارتباط كبير بالشعب، وتنتشر بين أفراده في البوادي والارياف والواحات والمدن، حيث تتوفر الطبيعية والخيال الواسع الخلاب، حيث تكون التقاليد والأعراف السائدة مانعا في معظم الأحيان من تحقيق الرغبات مما يدفع الإنسان إلى البحث عن متنفس يبدد به حالة الحصار، أو حالة الاختناق، والاغتراب الذاتي المفروض عليه من قبل المجتمع[3]، وورد تعريف الأغنية الشعبية في مؤتمر الموسيقى العربية (هي كلمات سهلة تلحن تلحينا، سهلا ليتأتى للعوام انتشارها بمجرد سماعها).

لقد تناقلت الذاكرة الأغنية الشعبية من جيل إلى جيل شفهيا ودون تسجيل أو تدوين، وهى تغنى بشكل جماعي أو فردي، وذلك لغرض الترفيه أو التسلية، كما أنها حوت الكثير من المعاني التي تجسد القيم، ذلك أنها ترتبط بوظيفة اجتماعية معينة أو مناسبات محددة كأغاني العمل والأفراح وغيرها. إن الأغنية الشعبية تؤدي وظائف يحتاجها المجتمع، تحمل في طياتها طابع المجتمع، معبرة

[3]- د.حسين عبدالحميد رشوان : الفلكلور والفنون الشعبية من منظور علم الاجتماع "المكتب الجامعي الحديث محطة الرمل الاسكندرية 1993م.

عن عاداته وأخلاقياته، ويمكننا من خلال دراستها التعرف على تجارب المجتمع وخبراته. والأغنية الشعبية في الأصل هي من إبداع شخص واحد ثم تتناقلها الجماعة ورددتها، وقد يحصل التبديل والتعديل فيها من قبل الجماعة حتى تصبح بالتالي ملكا لها، تعبر عن مشاعرها وامالها و طموحاتها[4].

من خصائص الأغنية الشعبية، الشيوع والانتشار، كما انها تتصف بصفة الجماعية، بمعنى ان أي شخص يستطيع أن يشترك في اداء الأغنية. يرى البعض أن الأغنية الشعبية مجهولة المؤلف ولكن هذا لا يمنع من أنه لابد ان يكون هناك دائما مؤلف حتى ولو كان مجهولا أو غير معروف فلابد للأغنية الشعبية من فرد وضعها في أول الامر سواء كان هذا الفرد أديبا معروفا في بعض الاحيان أو رجلا من العامة ظل اسمه مغموراً يطويه الغموض، ولكنني إقول إنه من الخطأ ان ينسب البعض من الناس الكثير من الأعمال إليهم بينما هي أصلا لآخرين، وقد يكون بعضهم مازال على قيد الحياة.

إن ظاهرة التخصص في الأغنية الشعبية واضحة وتعتبر أغنية العمل نوعا هاما من الإبداع الشعبي، وتعتبر أغاني الرحى لونا مميزاً من أغاني العمل صنعته المرأة بصيغه خاصة.

---

[4] - نفس المصدر السابق.

هذا اللون الذي سنتحدث عنه بإذن الله من خلال الفصل الأول من هذا الكتاب. إن أغاني الرحى عند المرأة الليبية من أعذب أغاني العمل وأوقعها في النفس. ولم تقتصر في ليبيا على المرأة البدوية أو الريفية بل إن المرأة في المدينة كانت تقوم بنفس العمل وبنفس المعدات وهى الرحى ومكوناتها المعروفة. وعليه فإن هذا اللون من أدب المرأة الليبية قد شمل كل مناطق البلاد، وانتشر بين أهلنا وخاصة النساء يرددنه ويستشهدن به ويذكرنه في أحاديثهن وجلساتهن ومحاوراتهن المختلفة. ولأهمية هذه المأثورات القولية ودورها في المجتمع فإن الاهتمام بجمعها و تبويبها وتوثيقا يصبح أمرا لازما علينا جميعا، ولنبدأ على بركة الله..

صناعة الرحى

شكل "3" رحاة الواحة

شكل "2" الكرو الأفريقي الكبير

شكل "4"

شكل "5"

رحاة الرقعة

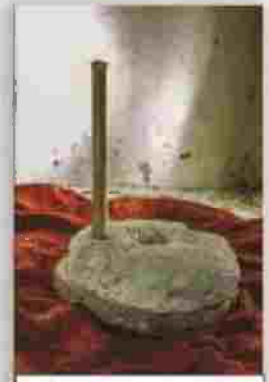

شكل "5" رحاة الصنعه " المطرية"

شكل "4" الثور الأفريقى الصغير

شكل "6" رحاة الصنعة وبجانبها طبق المطرية

شكل "9" رحاة قديمة وجدت بمنطقة القصر بغدن

رحاة الواحة زيبانيها و عاء الحبوب

صور : كمال ابوزيد حسن